نقد العقل المسرحي الجزائري المعاصر قراءة في المشروع السوسيولوجي لعبد القادر علولة مسرحية الأجواد أنموذجا

أ. أحمد رية
جامعة باتنة1

ملخص

تهدف هذه الورقة البحثية إلى سبر أغوار الفكر السوسيولوجي عند عبد القادر علولة من خلال مسرحية الأجواد التي تُعد– في نظرنا– من أبرز المسرحيات التي عالجت قضايا اجتماعية مختلفة استمدها المؤلف من الواقع الذي يعيش فيه، والمتأمل للمنهج الذي اتبعه المؤلف في طرحه لمشروعه السوسيولوجي يجد أنّه جمع بين الكتابة الإبداعية و الأسلوب النقدي؛ فهو الناقد و المحلل و المرشد و الموجه يُشخص الداء و يقترح الدواء، ولعلّ هذا ما يجعل المسرح عنده عبارة عن ممارسة اجتماعية و مشروع حياة متمفصلة ضمنه منظومات و أطر جديدة تتسم بالتفاعل و التأثير؛ كما تبنى عبد القادر علولة خطابا لغويا أسس–مع غيره من الكتاب الآخرين–أرضية معرفية جديدة و حوار سوسيولوجي و تواصل ثقافي يُحاول من خلاله وضع برنامج سوسيولوجي إصلاحي ينطلق من حدود معرفية و مرجعيات مختلفة اتضحت معالمها داخل النص المسرحي.

الكلمات المفتاحية : *المشروع السوسيولوجي– عبد القادر علولة– نقد العقل–الأجواد–حدود المعرفة – المرجع.*

Summary:

This paper aims at exploring the sociological thought of Abdelkader Aloula through the play Al Ajwad, which in our view is one of the most prominent plays that dealt with various social issues derived by the author from the reality in which he lives. He contemplates the approach adopted by the author in presenting his sociological project It is a combination of creative writing and critical style; it is the critic, analyst, guide and mentor diagnoses disease and proposes medicine. Perhaps this is what makes the theater a social practice and a life project that includes new systems and frameworks that are interactive and influential; The Almighty A linguistic discourse with other writers - a new knowledge area and a sociological dialogue and cultural interaction in which he tries to develop a sociological reform program that starts from different knowledge boundaries and references.

key words:The sociological project - Abdelkader Alloula - Criticism of the mind - Ajwad - the limits of knowledge – reference

مقدمة:

يعد عبد القادر علولة أحد العقول المسرحية الجزائرية المعاصرة التي حاولت أن تُؤسس لمسرح جزائري يهدف إلى معالجة القضايا الاجتماعية التي يُعاني منها المجتمع الجزائري،وبخاصة في الفترة التي تلت مرحلة الاستقلال و بداية ثورة البناء والتشييد، هذه المرحلة التي تحتاج إلى عقول إبداعية تواكب هذا التطور تصنع مجتمعا متميزاعلى الرغم من ملابسات هذه المرحلة.

في خضم هذه المرحلة ظهرت العديد من العقول المسرحية الجزائرية على شاكلة عبد القادر علولة الذي حاول أن يُقدّم مشروعه السوسيولوجي الذي يختلف شكلا و مضمونا عن سابقيه الذين كان لهم قصب السبق في الاهتمام بالقضايا السوسيولوجية على شاكلة الباحث

الأمريكي **إروين غوفمان**(***Goffman***)(1922–1982) الذي جعل منالمسرح منبرا لاستعراض مظاهر الحياة الاجتماعية.

بيد أنّه لكلّ واحد منهم طريقته الخاصة في طرح القضايا ومعالجتها، وحتى على مستوى المضامين السوسيولوجية وجدنا اختلافا في اختيار موضوع دون آخر، و لعلّ هذا راجع إلى الكاتب في حد ذاته والبيئة التي يعيش فيها.ويُعالج البحث العديد من الإشكالات نصوغها في مجموعة من الأسئلة:

- ✓ –ماهي أبرز المنطلقات للمشروع السوسيولوجي للكاتب؟
- ✓ –ماهي حدود المعرفة في نص المسرحية؟
- ✓ –هل المشروع السوسيولوجي مشروع مكتمل أم أنّه يحتاج إلى تعديل؟

للإجابة على كلّ هذه الأسئلة وغيرها سطرنا ثلاثة محاور أساسية، وهي:

المحور الأول: منطلقات الرؤية السوسيولوجية وسؤال المرجع.

المحور الثاني: حدود المعرفة السوسيولوجية و تمظهراتها المختلفة.

المحور الثالث: نقد البرنامج السوسيولوجي.

المحور الأول:منطلقات الرؤية السوسيولوجية(*) وسؤال المرجع:

(*)–السوسيولوجيا تسمية حديثة لعلم الاجتماع ***(Science sociale)*** و قد نحتها فيلسوف المذهب الوضعي أوغست كونت)***Conte)Auguste***عام 1839 و السوسيولوجيا علم يدرس المجتمعات الإنسانية وما يرتبط بها من وقائع اجتماعية و اقتصادية ، وقد وضع إميل دوركهايم***(Durkheim)*** أسس هذا المنهج وذلك سنة 1890. ثم بدأ تطبيق هذا المنهج على الفن و الأدب بشكل عام ثم المسرح ، وسوسيولوجيا المسرح جزء من سوسيولوجيا الفنّ ، وهي علم حديث نسبيّا تولّد من علوم أخرى سبقته، و تأثر بالتاريخ و الفلسفة و الأنثروبولوجيا و غيرها من العلوم الإنسانية.(يُنظر:ماري الياس و حنان قصّاب حسن: المعجم المسرحي، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، ط1، 1997، ص:256.).

إنّ أي رؤية معرفية لا تنطلق من العدم بل تعتمد على ما سبقها من معارف أخرى يكتسب الكاتب أغلبها من المحيط الذي ينشأ فيه والذي يغذي عقله و يُزوده بمخزون ثقافي و مكتسبات معرفية تنمي مهارة الكتابة لديه أو قد تكون–في بعض الأحيان–حافزا للكتابة؛ لأنّ سلطة الانتماء إلى مجتمع معين تفرض على الكاتب أن يُساهم بقلمه المبدع وأن ينخرط في منظومته السوسيولوجية التي تُشكلها الطبقات الاجتماعية الذي هو جزء لا يتجزء منها، فضلا عن خاصية التواصل التي يُنجزها بوصفها فعلا سوسيولوجيا يكسبه الكثير من المدركات المعرفية عن واقعه بكلّ ايجابياته و سلبياته، ومن أبرز هذه المكونات ما يلي:

1- أثر المعتقد في تشكيل النّص:

يرتبط المعتقد بالجانب الروحي للكاتب المسرحي فهو الذي يُوجهه إلى مكارم الأخلاق و يُقدم له المنهج الصحيح و يُحدد له معالم الكتابة،ويُعد المعتقد من أبرز المنطلقات المعرفية التي يكتسبها الكاتب في مجتمعه ويتمظهر على شكل تعاليم دينية تُقدم له مشروعا متكاملا يُنير له دربه ويُحدد له الإطار الذي يشتغل فيه، و المستقرئ لمسرحية الأجواد يتجلى له ذكر الدين الإسلامي و الممثل في شخص الرسول– صلى الله عليه وسلم– في تقديم القوّال الشخصية البطلة في مشهد جلول الفهايمي:"**قاري على الدّين و على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم**"[1]يظهر في هذا المقطع المسرحي المعتقد الذي يدين به الكاتب و

[1]-عبد القادر علولة: مسرحية الأجواد، ص: 130-131.

هو الإسلام وقد تجلى في ملفوظ يحمل معناه وهو (الدين) و القرينة هو ذكر صاحب الرسالة المصطفى –صلى الله عليه وسلم–، ومن ثمة فالكاتب أعلن عن المعتقد من خلال شخوصه المسرحية، وفي مقطع مسرحي آخر يظهر ذكر الله –عز وجل– في مقام الدعاء و ذكر أمة محمد –صلى الله عليه وسلم – " **الله يرحمني ويرحم أمة محمد**"[2]، فمن خلال المثالين السابقين نُلاحظ كيف يُؤثر المعتقد في إنتاج خطاب المبدع، ويُمكن للمتلقي أن يلمسه من خلال ملفوظات لغوية موجودة داخل النّص المسرحي، و تجدر الإشارة إلى أن لكلّ عقل مسرحي معتقده الخاص الذي يراه صحيحا مما يجعل طبيعة الكتابة تختلف باختلاف المعتقد،ولا أحد منا يُنكر تأثير المعتقد على العقل المبدع وعلى النص المسرحي في حد ذاته، فكثيرا ما ينتصر الكاتب لمعتقده من خلال الكتابة.

و من هنا نصل إلى أنّ المعتقد يُعد من أبرز المنطلقات التي يستند إليها المشروع السوسيولوجي لعبد القادر علولة، و تظهر أهمية هذا المرجع الروحي من خلال تلك القيم و المبادئ السامية التي تساهم في توطيد العلاقات الاجتماعية.

2–مبدأ الاشتراكية القائم على المصلحة العامة:

تُعد فكرة الاشتراكية من أبرز المنطلقات التي يرتكز عليها المشروع السوسيولوجي للمؤلف، وبخاصة إذا علمنا أن هذا التوجه هو الخيار الذي اتخذته الحكومة الجزائرية بعد الاستقلال كنظام اقتصادي بديل كفيل بتحقيق التنمية و الازدهار، ومن ثمة أراد الكاتب أن يُساير هذا

[2]-المصدر السابق، ص: 145.

النظام انطلاقا من قناعته الخاصة، و يُدافع عن هذه الفكرة و يسعى إلى الترويج لها، لهذا نجد جلّ كتاباته تصب في هذا الاتجاه.

والاشتراكية نظام اقتصادي و سياسي ومشروع سوسيولوجي يقوم على فكرة امتلاك الدولة لوسائل الإنتاج والملكية الجماعية و استثمار الموارد الطبيعية بهدف ترقية المجتمع والمصلحة العامة،وهذا بعد هيمنة النظام الرأسمالي و الإقطاعي على الحياة الاقتصادية وسيطرت فئة قليلة من المجتمع على الثروة وظهر استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، إذ يرى الاشتراكيون أن النظام الرأسمالي أدى إلى ظهور الكثير من المشاكل الاجتماعية مثل: البطالة والفقر وغياب الرعاية الصحية في المؤسسات الاقتصادية، واضمحلال القيم الاجتماعية،وعليه يجب إعادة توزيع ثروات الدولة بهدف تحقيق العدالة الاجتماعية.

ومن الذين كان لهم قصب السبق في صياغة المشروع الاشتراكي الفيلسوف الألماني **كارل ماركس*(Karl Marx)*** (1818-1883)، و**فريدريك انغلز*(Friedrich Engels)*** وغيرهما، وتقوم الاشتراكية على مجموعة من المبادئ أهمها إرساء مبادئ التعاون والتضامن بين أبناء المجتمع الواحد، وبخاصة بين العمال فيما بينهم و تجاوز المصالح، و في هذا الصدد يقول **كارل ماركس*(Karl Marx)***:"فالعامل في التعاون المنهاجي مع الآخرين يتجاوز الحدود الفردية و ينمي قدراته"[3]، ثم انتشر الفكر الاشتراكي في كلّ فروع المعرفة العلمية والأدبية و في المسرح أين أضحى الكاتب الاشتراكي أمينا في

[3]-كارل ماركس: رأس المال- نقد الاقتصاد السياسي- ترجمة: فهد كم نقش، دار التقدم، موسكو، الاتحاد السوفياتي، م1،(د.ط) ،1985 ص:467.

نقل الواقع و معالجة القضايا الاجتماعية، وهذا مالمسناه في مسرحية الأجواد مشهد علال :

"هذا السلعة مخدوعة تبان خشينة مزوقة

صنع القطاع الخاص يا سيدي للروقة

دوك الي يخدموها أصواتهم مخنوقة.

أيامهم مرهونة وجهودهم مسروقة.

قول كيف بارت هذا السلعة و بقات معرمة.

اللي نتجوها في إضراب حالة مشومة.

عمال القطاع العام يحموا على اللقمة "[4]

فهذه الأغنية الشعبية التي أداها القوال امتزج فيها اللحن الشعبي بالفكر الاشتراكي و يتجلى هذا من خلال الإشارة إلى القطاع العام(=النظام الاشتراكي) والقطاع الخاص(=النظام الرأسمالي)وذكر مساوئ النظام الخاص القائم على التضيق في الحرية النقابية والاضطهاد و الاستبداد الذي يتعرض له العامل البسيط في ورشات المؤسسات الاقتصادية، كما يُثير المقطع المسرحي قضية الإضراب الذي يُعد أحد الوسائل الهامة التي يستخدمها العمال للمطالبة بحقوقهم فضلا على أنّه أحد مظاهر الاتحاد بين العمال، و يُعد – في نظرنا– من وسائل الضغط يُمارسها العمال في مؤسساتهم عندما لا تُستجاب مطالبهم وتُغلق قنوات الحوار أمامهم.

ومن هنا نصل إلى أنّ الاشتراكية كفكرة ايديولوجية ومشروع سوسيولوجي يهدف إلى تحقيق التوازن بين طبقات المجتمع يسعى إلى

[4]-عبد القادر علولة: مسرحية الأجواد، ص: 80.

تكريس قيم التعاون و التضامن والتآزر بين أبناء المؤسسة الواحدة هذا ما ننشده و نحث كلّ المبدعين إلى التوجه نحو هذه القيم النبيلة و الدفاع عنها و نشرها و ترسيخها في المجتمع.

3-أثر البيئة في تشكيل الكتابة السوسيولوجية:

يعيش الكاتب المسرحي ضمن منظومة اجتماعية تمده بالأفكار و تساعده على الإيداع فالبيئة السوسيولوجية تمثل أرضية معرفية خصبة تمكن الكاتب من إنتاج نصوص مسرحية تتماشى مع العادات و التقاليد التي طُبع عليها، لهذا تحتل البيئة حيزا متميزا في نص المؤلف الذي يسعى في كلّ كتابة إلى أن يُروج لأفكار مجتمعه و يُعالج أبرز الآفات الموجودة فيه ، ويُؤسس لنظام معرفي يشترك فيه أفراد الجماعة.[5]

و المتأمل لمسرحية الأجواد يُلاحظ أن الكاتب أراد أن يتبنى مشروعا إصلاحيا يهدف إلى تربية الفرد الجزائري و تنظيم الحياة الاجتماعية[6] انطلاقا من حماية الملكية العامة و القضاء على شتى أشكال الاستغلال الموجودة في المجتمع وإرساء ثقافة التضامن و التآزر بين أفراد المجتمع.

والدارس لمضامين المشاهد المسرحية يُلاحظ أن الكاتب أثار قضايا عاشها في بيئته أو سمع عنها، وحاول أن ينقلها إلينا بهدف دمجنا في الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه، ويتمظهر أثر البيئة كذلك حتى في شخوصه المسرحية المستمدة من مجتمعه فعلال و الحبيب

[5]-بول آرون و ألان فيالا:سوسيولوجيا الأدب، ترجمة: محمد علي مقلد، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2013، ص:34.

[6]-عبد السلام حيمر: في سوسيولوجيا الخطاب-من سوسيولوجيا التمثّلات إلى سوسيولوجيا الفعل-الشبكة العربية للأبحاث و النشر، بيروت، لبنان، (د.ط)، (د.ت)، ص:264.

الربوحي و المنور و العكلي وغيرها من الأسماء شخصيات مستوحاة من الوسط الاجتماعي، ولما سُئل الكاتب –ذات يوم– عن طريقة إعداد شخوصه المسرحية فأجاب"إنّي أستخرجها من الحياة اليومية، من الواقع كلّ يوم. بالطبع هناك معالجة فنية و جمالية، أي كلّ ما يشمله عمل الإبداع المعقد. إنّ شخوصي تنطلق و تنبثق من الواقع.وهدفهم هو واقع المتفرج.إنّ الحياة أو الواقع إن أردت يزودنا باستمرار بمواد و مواضيع و أفكار ومبررات تغذي وعينا الاجتماعي و الفني(...) أما بالنسبة لشخوصي فإنّهم يعملون دون هوادة في المسرح على تقديم المُعاش الاجتماعي و العميق للمتفرج "[7]، يُحيلنا هذا النص إلى مجموعة من الدلالات السوسولوجية نوجزها في مايلي:

- ✓ –الشخصيات استخرجها الكاتب من المجتمع الذي يعيش فيه.
- ✓ –يُعيد الكاتب صياغة هذه الشخصيات من جديد مما يُضفي عليها مسحة جمالية.
- ✓ –تُعالج شخصيات عبد القادر علولة الواقع الاجتماعي بكلّ إيجابياته و سلبياته.
- ✓ –تحمل أسماء الشخصيات بُعدا سوسيولوجيا من خلال العلاقات التي تُقيمها مع بعضها البعض داخل المجتمع.

وهناك مسألة أخرى تتعلق باللغة بوصفها أحد مقومات بيئة الكاتب، فعبد القادر علولة تبنى اللهجة الجزائرية ناحية الغرب، ولقد أسهمت هذه

[7]- لقاء مع عبد القادر علولة أجراه محمد جلّيد أستاذ علم الإجتماع في جامعة وهران في أكتوبر 1985، اللقاء مدون ضمن كتاب عبد القادر علولة : من مسرحيات علولة (الأقوال – الأجواد- اللثام)، ص:243.

اللّهجة في الكشف عن هُوية النص و مرجعياته والبيئة التي كُتب فيها، كما أنّها تدخل ضمن قناعات الكاتب الذي اختار لغة يفهمها الجمهور، فنقرأ مثلا قوله في مشهد جلول الفهايمي:"**العاملة:مسكين...دائما في فمه كلمة الحق...دائما يقول الطب من أهم الوسائل في المجتمع** "[8]، نُلاحظ النبرة الوهرانية التي تنتهي بالهاء الساكنه كما في قوله(فمهْ) التي تكشف عن الهوية اللغوية للنّص، ولعلّ اختيار الكاتب للهجة الجزائرية لم يكن اعتباطا بل تخطيط مسبق وقراءة واعية لطبيعة المجتمع الذي يكتب له، ففهم الكاتب لخصوصية لغة المجتمع من عوامل نجاح العمل المسرحي.

المحور الثاني: حدود المعرفة السوسيولوجية و تمظهراتها المختلفة:

تنطلق المعرفة السوسيولوجية في مسرحية الأجواد من فكرة الجود والكرم، وهي فكرة سوسيولوجية في حد ذاتها من خلال تأثيرها في شبكة العلاقات الاجتماعية بين أبناء المجتمع الواحد، وتتمظهر على شكل ممارسات و أفعال مسرحية تقوم بها الشخصيات المسرحية تنم عن الجود، و عندما سُئل الكاتب عن سبب اختيار عنوان الأجواد لمسرحيته فأجاب:"فيما يتعلق بعنوان "الأجواد" إنّه يعني بالمعنى الأولي و الحرفي " الكرماء". فهو يلخص بالنسبة لي –إلى حد ما– الفكرة المركزية، أي جوهر المسرحية. هذه الأخيرة هي عبارة عن جدارية تمثل الحياة اليومية، أو بالأحرى بعض اللحظات من حياة الجماهير الكادحة و الناس البسطاء إنّها مناظر إنسانية نصادفها كلّ يوم، تحكي هذه الجدارية وتكشف بدقة كيف يتصفُ هؤلاء الناس المغمورون و البسطاء

[8]-عبد القادر علولة: مسرحية الأجواد، ص: 137.

والمحقرون و الذين لا نكاد نلحظهم بالجود و كيف يتكفلون، بتفاؤل كبير و بإنسانية متأصلة بالمشاكل الكبرى للمجتمع "[9]، فالكاتب أراد أن يُرسخ ثقافة الجود في المجتمع الجزائري، هذه الثقافة التي كانت غائبة في المجتمع الجزائري في فترة من الفترات وحلّت محلها الانتهازية والاستغلال، والغريب في الأمر أن الذين يحملون لواء الجود أناس بسطاء من عامة النّاس(=الطبقة الكادحة) يسعون إلى معالجة قضايا الاجتماعية بوسائلهم الخاصة وبإمكانياتهم المتواضعة بهدف ترقية مجتمعهم و القضاء على الآفات الاجتماعية، مما يجعلهم يلقنون الآخرين دروسا في التضحية والإيثار.

فأبطال مسرحية الأجواد أناس بسطاء يشتغلون وظائف بسيطة هامشية في نظر المجتمع لكن حبهم لوطنهم وحرصهم على المصلحة العامة جعلهم يتكفلون بمشاكل مجتمعهم، ويحاولون بإمكانياتهم الخاصة أن يشعلوا بصيص أمل في قلوب الناس، و النص المسرحي يمتاز–في اعتقادنا– بنمط عرض جديد تكثر فيه الأغاني الشعبية التي يُؤديها القوّال و هو شكل جديد وضعه عبد القادر علولة وغلبه على النص المسرحي بهدف كسر المألوف وتحقيق الفرجة مما ينعكس إيجابا على المتلقي قارئا كان أم مشاهدا.وعندما سئُل المؤلف عن مضمون مسرحية الأجواد أجاب قائلا:" المسرحية تضم ثلاثة مواضيع درامية تستقطعها أربع أغنيات، ويستقل كلّ عنصر من عناصر المسرحية بذاته من حيث

[9]-لقاء مع عبد القادر علولة أجراه محمد جلّيد أستاذ علم الاجتماع في جامعة وهران في أكتوبر 1985، اللقاء مدون ضمن كتاب عبد القادر علولة : من مسرحيات علولة (الأقوال – الأجواد- اللثام)، ص:233.

الموضوع، في حين يرتبط الكلّ بما يمكن أن أسميه العناصر الأساسية للمضمون"[10]، فمسرحية الأجواد تضم ثلاثة مواضيع و أربع أغنيات شعبية ترتبط مع بعضها البعض من خلال الفكرة الأساسية هي فكرة الجود وتستعرض مشاهد مثيرة للدهشة تتفق في الفكرة وتختلف في طريقة أدائها، ومن أبرز القضايا التي تناولتها مسرحية الأجواد:

1- قضية الفقر:

تُعد آفة الفقر من الآفات الاجتماعية التي يحملها مشروع المؤلف ورد ذكرها في مشهد علال على لسان القوال:"**حافظوا على الفقير يصيب ما يحط فوق المائدة**"[11]نُلاحظ في هذا المشهد صوت القوال وهو يخاطب الذات المتلقية و يدعوها إلى المحافظة على الفقير، ولعلّ لهذه الدعوة مبرراتها الخاصة في برنامج الكاتب الرامي إلى معالجة هذه الآفة التي كانت ولاتزال في المجتمع الجزائري، وبخاصة في ظل التحولات الاقتصادية الجديدة التي وسعت الفجوة بين طبقات المجتمع الواحد ازداد فيها الغني غنا والفقير فقرا في ظل هذه الظروف جعلت الكاتب يتحدث عن الفقر، فهذه القضية بوصفها فرعا معرفيا(***Discipline***) تُنتج خطابا سوسيولوجيا[12] يعد جزء لا يتجزأ من المشروع العام يحمل دلالات عدة استطاع المؤلف أن يصوغها على شكل نصيحة تُحقق مبدأ التلاحم بين طبقات المجتمع.

---

[10]- لقاء مع عبد القادر علولة أجراه محمد جلّيد أستاذ علم الاجتماع في جامعة وهران في أكتوبر 1985، اللقاء مدون ضمن كتاب عبد القادر علولة : من مسرحيات علولة (الأقوال –الأجواد- اللثام)، ص:234.

[11]-عبد القادر علولة: مسرحية الأجواد، ص: 80.

[12]-ميشيل فوكو: نظام الخطاب:ترجمة: محمد سبيلا، دار التنوير للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، (د.ط)، (د.ت)، ص:19.

2-قضية التضامن:

يُعد التضامن من الممارسات الاجتماعية التي تقوي شبكة العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع و تزرع أواصر الإخاء بين الأغنياء و الفقراء و من أمثلة التضامن في النص المسرحي ما جاء في مشهد الحبيب الربوحي في قول القوّال:"**في ختام الدراسة خاد الربوحي الحبيب الحداد موقف و دبّر على حلّ للنجدة نظم حلقة تضامنية و دخّل معاه شبان الحي في العملية** "[13]، يُجسد هذا المقطع المسرحي أحد صور التضامن وهذا ما تدل عليه عبارة(حلقة تضامنية) هذه الحلقة التي دعا إليها الحبيب الربوحي لمساعدة حيوانات الحديقة، ولعلّ هذه الدعوة نابعة من وعي كبير بحجم المسؤولية التي تحتاج إلى تجنيد الجميع، فهذا الخطاب السوسيولوجي الوارد في هذا المشهد مشروع يهدف إلى بناء مواطن صالح يهتم بقضايا مجتمعه، ولم يستثن المشروع العمال البسطاء مثل حارس الحديقة الذي أراد أن ينخرط في هذا المشروع بإمكانياته المحدودة، يقول في ذلك:" **بسم الله يا سيدي أنا واجد نعاون السي الحبيب على الراس و العين قليل**"[14]، تحمل نية حارس الحديقة بعدا سوسيولوجيا يتمثل في رغبة الفرد مهما قلّ شأنه في تقديم يد المساعدة ولو بإمكانياته المتواضعة.

وفي مقطع آخر من نفس المشهد يتعلق التضامن بين العمال في ما بينهم " **عندنا عمال من الميناء مطردين رانا نلمّولهم العيد قرب**

[13]-عبد القادر علولة: مسرحية الأجواد، ص: 85.
[14]-عبد القادر علولة: مسرحية الأجواد، ص: 99.

نعاونوهم كاين فيهم اللي أكثر من عشرة شهور ما ظربش ضربة"[15]، يحمل التضامن قيمة جمالية، وبخاصة عندما يرتبط بالقضايا العمالية ؛ فتضامن المعنوي و المادي الذي أبداه الحبيب الربوحي و أصدقاؤه اتجاه عمال الميناء يُكرس قيم التضامن بين العمال في ما بينهم على الرغم من اختلافاتهم العرقية و المذهبية و تعدد وظائفهم، وهذا أحد المبادئ التي يحملها مشروع الكاتب أين يُصبح العمال كالجسد الواحد.

و في مشهد سكينة تتجلى صورة أخرى من صور التضامن تضامن العاملات مع زميلتهم التي أقعدها المرض كما يظهر في قول القوال:"

عولوا الخدامات يتغارموا و يلمّوا لها

قالوا يلزم نتاحدوا ضد الجريمة"[16]

إنّ مرض سكينة سببه ظروف العمل السيئة التي تعمل فيها مما يجعل زملائها في العمل يُساعدونها لتخطى ظروفها، وبخاصة إذا علمنا أنّها كانت أنموذجا يحتذى به في التضامن، كما يستعرض المشهد قضية الاتحاد بين العمال للبحث عن أسباب مرض، و هنا يجتمع البعد السوسيولوجي و الاقتصادي مع بعضهما البعض ليُشكلان معا الإطار الدلالي الذي يشتغل عليه مشروع عبد القادر علولة، فالتضامن والاتحاد هما أحد الدعائم الأساسية للتغلب على الصعوبات التي تقف حجرة عثرة أمام التطور الاجتماعي و الاقتصادي، وبخاصة عندما تصبح القضايا

[15]- الـمصدر نـفسه، ص: 101.

[16]- الـمصدر نـفسه، ص: 151.

العمالية و عجز العمال عن أداء وظائفهم قضية تهم الجميع ، كما هو وراد في هذا المقطع:

"الجيران واصحاب الحومة سمعوا بها

الكثير فزعوا حاملين السكر و القهوة"[17]

إنّ اهتمام سكان الحي بما فيهم الجيران بقضية سكينة، و كذلك الحلقة التضامنية التي شكلها الكثير ممن سمع بقصتها له الأثر الإيجابي على نفسية الشخصية البطلة(=سكينة) و على كلّ عامل يعيش نفس الحالة، أو حتى حالات أخرى تُشبهها كما هو الحال في مشهد قدور:"**عايشة في الجنازة تفتل، عند الجارة المقابلة**"[18]، فذهاب عائشة إلى بيت الجارة لمساعدتها في إعداد الطعام بمناسبة الوفاة تقدم لنا صورة عن تضامن الجيران في المصائب التي يتعرضون لها كفقدان شخص عزيز .

3-الاحترام:

إن احترام الصغير وتوقير الكبير من مكارم الأخلاق الذي يجب أن يتحلى بها كلّ فرد في المجتمع لما لها من انعكاسات إيجابية على المجتمع، فهي أحد الدعائم الأساسية التي تهدف إلى تقوية أواصر المحبة والإخاء بين أفراد المجتمع، وهذا ما نلمسه في خطاب القوال في خضم حديثه عن علاقة الشخصية البطلة(= الحبيب الربوحي)بمحيطها

[17]- عبد القادر علولة: مسرحية الأجواد، ص: 151.

[18]-المصدر نفسه، ص: 103.

الذي تسكن فيه:"**الربوحي يعتني بزاف بصغار الحي يتناقش معاهم ويلاطفهم يهتم كذلك بكبار السن سكان الحيّ يفقدهم مرّة على مرّة ويجمّع معاهم**"[19]، يدعونا خطاب الشخصية البطلة إلى ضرورة الاعتناء بصغار الحي من خلال مناقشتهم ومحاورتهم وملاطفتهم، ولعلّ هذا يلفتنا إلى قضية سوسيولوجية تتعلق بطريقة تعاملنا مع أبنائنا بصفة خاصة، والأطفال بصفة عامة، وهذا يندرج ضمن رؤية الكاتب لطبيعة العلاقة بين فئات المجتمع.

وكذلك إلى احترام الكبار وهنا نقصد فئة الشيوخ هذه الفئة التي تحتاج منا إلى رعاية خاصة، فَهُمْ الماضي والتاريخ والذاكرة الوطنية يستشيرهم الحبيب الربوحي في أمهات القضايا الاجتماعية ويتفقدهم من حين إلى آخر و يُجالسهم ليسمع منهم و يأخذ بنصائحهم التي فيها الخير الكثير.

4-التكفل بالقضايا الاجتماعية العامة:

إنّ تجنيد النفس لخدمة قضايا الآخرين من مظاهر الإيثار الغائبة في مجتمعاتنا المعاصرة، فالحبيب الربوحي من هؤلاء الذين كرسوا حياتهم لتكفل بالقضايا الاجتماعية العامة بعيدا عن المصلحة الخاصة ، فنقرأ قوله:"**تحمل بالقضية قال لهم من أجلكم وفي خدمتكم و لو بقطيع الراس نتجندوا نلتزم بالمهمة**"[20]، تنطلق هذه الرغبة من مبدأ

[19]- عبد القادر عولة: مسرحية الأجواد، ص: 83.
[20]- عبد القادر عولة: مسرحية الأجواد، ص: 83.

سوسيولوجي يجعل من الفرد عنصرا فعالا في بناء المجتمع من خلال مساهمته في معالجة قضاياه.

5-الصداقة:

تُحظى الصداقة بمكانة متميزة في الخطاب السوسيولوجي لما لها من آثار إيجابية في بناء المنظومة الاجتماعية بين أفراد المجتمع، و يظهر هذا الخطاب في قول القوال:" **كانت بين عكلي و منوّر عكلي ومنوّر صداقة كبيرة صحبة متينة رابطتهم حدّ ما يدس على خوه. واحد منهم ما يدير شيء بلا ما يشاور الآخر**"[21]، إنّ هذه الصلة الوثيقة التي تربط بين هذين العاملين البسيطين هي رابطة أخوة إلى حد لا يستطيع أحدهما أن يُقدم على شيء دون استشارة الآخر.

6-الكرم:

الكرم خُلق متأصل في المجتمع الجزائري يساهم في حد كبير في توطيد العلاقات الاجتماعية، و عند تتبعنا لهذا الخلق في النص المسرحي نصطدم أمام كرم من نوع خاص أين يقوم الإنسان بالتبرع بهيكله العظمي بعد وفاته إلى المؤسسة التي يعمل فيها :"**نهدي جسدي. يعني هيكلي العظمي للمدرسة** "[22]، تحمل هذه الفكرة –على الرغم أنّها فكرة مثالية– قيمة اجتماعية تدعونا إلى ترسيخ ثقافة التبرع لمساعدة الآخرين.

في ضوء ما سبق نُلاحظ أن القضايا السوسيولولجية التي أثارها الكاتب في نصه تنقسم إلى قسمين؛ القسم الأول منها موجه إلى معالجة

[21]- المصدر نفسه، ص: 104.
[22]- المصدر نفسه، ص: 105.

قضية الفقر السائدة في المجتمع من خلال إرساء ثقافة التضامن، أما القسم الثاني فيتعلق بتلك الأخلاق و القيم النبيلة التي تُحافظ على شبكة العلاقات، و الخطاطة التالية تلخص لنا أبرز هذه القضايا:

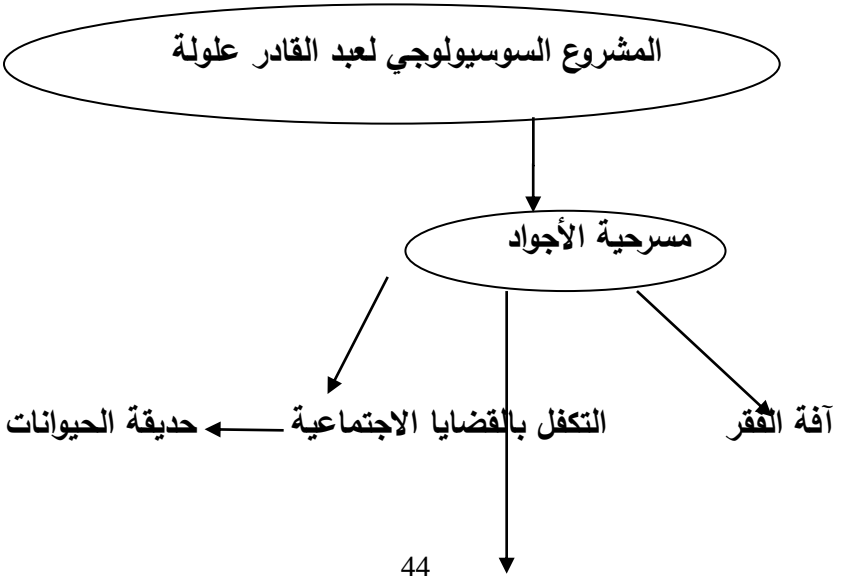

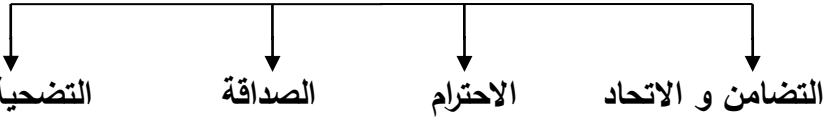

المحور الثالث: نقد البرنامج السوسيولوجي:

إنّ أي برنامج سوسيولوجي يُقدمه أي عقل مسرحي يبقى عبارة عن مشروع سوسيولوجي اقترحه انطلاقا من رؤية معينة قد تتعرض هذه الرؤية لنقد لاذع من قبل النقاد و المفكرين لعدم اكتمالها أو لمثاليتها المخالفة للأطر الواقعية التي تفرض على المبدعين تجاوز مرحلة اللاواقع أو المدينة الفاضلة لأفلاطون و انغماس في كتابة سوسيولوجية معينة نابعة من وعي فكري ودراية معرفية تُحاول أن تُساهم مع الآخرين (= المبدعين في مجالات أخرى) في النهوض بالمجتمع من خلال تبني خطابات هادفة موجهة إلى فئات المجتمع برمته دون إقصاء ولا تهميش.

إنّ هذا التوجه السوسيولوجي يفتح على العقول المسرحية مسارات نقدية جديدة وممارسات تأويلية لكلّ أعمالهم الإبداعية في مجال الصناعة المسرحية، و لعلّ هذا ما يحمله مشروع الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي **جورج غورفتش*(Gurvitch)*** (1894-1965)من خلال دراسته المعنونة(سوسيولوجيا المسرح) سنة1957م، وهي دراسة تهتم بدراسة المسرح من الناحية الاجتماعيّة، وتبحث عن مختلف أنواع العلاقات التي تربط بين المُمارسة المسرحيّة و المجتمعات التي تُشكل الأرضيّة التي ظهرت فيها، وكذلك كتابه (الأطر الاجتماعية للمعرفة) و

الذي حدد من خلاله العديد من الوظائف [*] التي يقوم بها علم اجتماع المعرفة ، ولعلّ من أهمها الارتباطات

المعرفية بين طرائق التعبير الإبداعي و المجتمع[23]، وبما أن المسرح يُعد أحد هذه الطرائق فإنّه يحظى بمكانة متميزة لديه؛ لأنّ المسرح أرضية خصبة لسوسيولوجيا المعرفة .

وكذلك مشروع المفكر الفرنسي جان دوفينيو(***Jean Duvignaud***)(1921-2007)الذي جسده في كتابه(الفرجة والمجتمع)(***Spectacle et Société***) الذي ألفه1971 [24]، و الذي أراد به أن يُؤسس لسوسيولوجيا المسرح يكون فيها العقل هو سلطان النزعة المنطقية و المعرفية للكاتب [25] يُنير له دروب الحياة ببصيرة ووعي انطلاقا من مقولة أن الكاتب ابن بيئته و مادامت المجتمعات تتفاوت في ما بينها فالكتابة المسرحية تختلف ؛ لأن لكلّ مجتمع عاداته وتقاليده الخاصة به و قضاياه، و هذا على الرغم من التشابه الذي قد نجده كقضية الفقر مثلا التي تُعاني منها معظم المجتمعات المعاصرة.

وعند استقرائنا للبرنامج السوسيولوجي الذي جاء به عبد القادر علولة تبين لنا مايلي:

---

[*]-من هذه الوظائف :العلاقة بين المرتبة المتغيّرة للأنواع المعرفية -دور المعرفة و ممثليها في شتى أنماط المجتمعات.-الحالات الخاصة بالتباين بين الأطر الاجتماعية و المعرفة.(لتفصيل يُنظر: جورج غورفيتش:الأطر الاجتماعية للمعرفة، ترجمة: خليل أحمد خليل، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، ط3، 2008، ص:23-24.

[23]-المرجع نفسه، ص:23.

[24]-بول آرون و ألان فيالا:سوسيولوجيا الأدب، ترجمة: محمد علي مقلد، ص:95.

[25]-عمّانوئيل كنط: نقد العقل المحض، ترجمة: موسى وهبة، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، ص:201.

✓ –ترتبط الممارسة المسرحية عند عبد القادر علولة على المزج بين القضايا السوسيولوجية و تحقيق الفرجة، وهذه الخاصية ليست موجودة في مسرحية الجواد فحسب بل لمسناها في جلّ مسرحياته .

✓ –ينطلق المشروع السوسيولوجي للكاتب من أفكار ومفاهيم إيديولوجية تتعلق بالفلسفة الاشتراكية التي تولي اهتماما بالغا للجماعة الإنسانية التي ينتمي إليها الفرد، و على الكاتب المسرحي أن يُخصص مساحة داخل النص المسرحي لمعالجة القضايا الاجتماعية، و هذا ما ذهب إليه المفكر الفرنسي **باتريس بافيس*(Patrice Pavis)*** الذي دعا إلى ضرورة ربط العمل المسرحي بالأفكار و المفاهيم الايديولوجية للمجموعة الاجتماعية.[26]

✓ –عند تحليلنا لمضامين المشاهد المسرحية وجدنا أن الكاتب عند استعراضه للمواضيع السوسيولوجية لم يعقد مقارنات بين الظاهرة الاجتماعية في الجزائر و في الدول الأخرى .

✓ –البعد المثالي للمشروع السوسيولوجي مما يصعب تحقيقه على أرض الواقع كالفكرة التي انبنى عليها مشهد العكلي و المنور والتي تتعلق بالتبرع بالهيكل العظمي للمؤسسة التربوية، هذه الفكرة التي يصب تجسيدها على أرض الواقع .

الخاتمة:

مما تقدم نخلص إلى مجموعة من النتائج أهمها مايلي:–

[26]- باتريس بافيس:معجم المسرح:ترجمة: ميشال ف. خطَّار، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2015، ص:501.

–يُؤثر المعتقد في توجه العقل المسرحي؛ لأنّ الكاتب المسرحي يدافع عن أفكار يؤمن بها ويرى أنّها السبيل الأمثل للتغيير الاجتماعي، وهذا ما يرتكز عليه مشروع عبد القادر علولة الذي نهل من تعاليم الدين الإسلامي انطلاقا من فهمه الخاص، و الذي جسده في النص المسرحي من خلال مجموعة من ظهر من الملفوظات تُعد–في نظرنا– إعلانا صريحا لهوية الكاتب.

– تشبع الكاتب بأفكار الاشتراكية التي كانت في فترة من فترات النظام الاقتصادي الذي تبنته الدولة الجزائرية كحل بديل لتحقيق ثورة البناء و التشييد ، وتجلت هذه الأفكار في النص المسرحي من الفكرة الأساسية لمواضيع المشاهد المسرحية.

–أسهمت البيئة التي يعيش فيها الكاتب في إرساء دعائم المشروع السوسيولوجي القائم على الإصلاح و التغيير و استحداث فضاء الإبداع و محاربة الآفات الاجتماعية المنتشرة في المجتمع و الحد من مظاهر الفقر و الحرمان من خلال ترسيخ ثقافة التضامن و الإيخاء والإيثار في المجتمع وزرع مبادئ التسامح و الصلح.

–ترتكز مسرحية الأجواد على مشروع سوسيولوجي ممنهج وضع من خلاله عبد القادر علولة خطة محكمة لبناء المجتمع من خلال طرح مواضيع اجتماعية و اقتصادية ترتبط بالفرد و المجتمع مثل قضية الفقر و الحرمان التي تُعاني منها الطبقة الكادحة في ظل لهث البعض وراء المادة و تحقيق المصلحة الخاصة بامتصاص دماء الفقراء و استغلال العمال و هضم حقوقهم ومحاربة حرية الرأي .

-يقوم مشروع الإصلاح على بناء فرد جزائري يستمد منهج حياته من تعليم الدين الإسلامي الذي يضمن للفرد حقه داخل الجماعة التي ينتمي إليها ويدعو إلى التضامن بين أفراد المجتمع الواحد، ويحث الفرد على المساهمة في معالجة القضايا الاجتماعية العامة، و استثمار الأخلاق في توطيد العلاقات بين الأفراد كالصداقة و الاحترام المتبادل و الكرم وغيرها من العوامل التي تحتاج منا أن نُعيد النظر في منظوماتنا الأخلاقية التي فقدت الكثير من قيمها النبيلة وحلت محلها قيم أخرى غريبة عنا كالأنانية وحب الذات و السعي وراء الجاه و السلطة والمال ولو بالطرق غير المشروعة، ففسدت الأخلاق واتسعت الفجوة بين طبقات المجتمع الواحد.

قائمة المصادر والمراجع

أولا/-المصادر

عبد القادر علولة:

1-مسرحية الأجواد ، دار مرفم، الجزائر،(د.ط)1997.

ثانيا/-المراجع بالعربية

عبد السلام حيمر:

2-في سوسيولوجيا الخطاب-من سوسيولوجيا التمثّلات إلى سوسيولوجيا الفعل-الشبكة العربية للأبحاث و النشر، بيروت، لبنان، (د.ط)، (د.ت)

ثالثا/-المراجع المترجمة

بول آرون و ألان فيالا:

3–سوسيولوجيا الأدب، ترجمة: محمد علي مقلد، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2013.

جورج غورفيتش:

4–الأطر الاجتماعيةللمعرفة، ترجمة: خليل أحمد خليل، مجد المؤسسة الجامعيةللدراسات و النشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط3، 2008.

عمّانوئيل كنط:

5– نقد العقل المحض، ترجمة: موسى وهبة، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، (د.ط)، (د.ت).

كارل ماركس:

6–رأس المال– نقد الاقتصاد السياسي– ترجمة: فهد كم نقش، دار التقدم، موسكو، الاتحاد السوفياتي، م1،(د.ط) ،1985 .

ميشيل فوكو:

7– نظام الخطاب:ترجمة: محمد سبيلا، دار التنوير للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، (د.ط)، (د.ت).

رابعا/–المعاجم العربية و المترجمة:

–العربية

ماري الياس و حنان قصّاب حسن:

8–المعجم المسرحي، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، ط1، 1997.

–المترجمة

باتريس بافيس:

9–معجم المسرح:ترجمة: ميشال ف. خطّار، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2015.

خامسا/–لقاءات

محمد جلّيد :

10–لقاء مع عبد القادر علولة ، جامعة وهران في أكتوبر 1985، اللقاء مدون ضمن كتاب عبد القادر علولة : من مسرحيات علولة (الأقوال –الأجواد– اللثام)، دار موفم، الجزائر،1997 (د.ط).